



إِنَّا نَخْرُجُ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَنَلْتَحِفُ غَطَاءً أَبْيَضَ مَطْرُزاً بِبَشَائِرِ الْمِيلَادِ، ثُمَّ يَحْلُّ مِيقَاتُ الرَّحِيلِ عَنِ الدِّيَارِ، وَمُفَارَقَةُ الْأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ، فَنَوْدِعُ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِلَا إِسْتِئْذَانِ، وَنَغْسِلُ بِالْمَاءِ وَالسِّدْرِ، وَنَوْضَعُ فِي الْأَكْفَانِ بِلَا مُخِيطٍ وَلَا طَرَازٍ، وَيَغْطِيْنَا دَهَانُ الْمَسْكِ وَالْكَافُورِ، وَيَسْجِينَا بِالْبَيَاضِ، فَتَتَخَفَّفُ أَجْسَادُنَا مِنَ الْأَنْتَالِ وَالْأَحْمَالِ، وَتُزَفُّ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَتْقِيَاءِ إِلَى الرَّوْضَاتِ، وَتُبَشِّرُ بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي الْجَنَّاتِ، حَامِلَةً صَحَافَهَا الْبَيَاضِ، تَرِّينَ فَصُولَهَا جَلَائِلُ الْأَعْمَالِ بِالْفَضَائِلِ وَالْخِيرَاتِ ..

وَهِينَ يَتَحَوَّلُ سِبَاقُ الْحَيَاةِ إِلَى سِبَاقِ يَلْبَّيِ الْمَطَاعِمِ وَالرَّغْبَاتِ، يَصْبُرُ الْإِنْسَانُ غَارِقاً فِي طَوفَانِ الْفَقْنِ وَالشَّهْوَاتِ، يَتَحَلَّ مِنْ يَمِينِ الْعَهُودِ وَيَنْكُثُ مِنْ يَمِيقَاتِ الْوَفَاءِ، وَيَتَخَلَّ عَنْ كُلِّ مَسْؤُلِيَّةٍ ذَاتِ تَكْلِيفٍ أَوْ التَّزَامِ، مُخَالِفًا لِلْقِيمِ الْدِينِيَّةِ وَالْأَحْكَامِ، وَمِسْتَعِدًا لِإِتْقَانِ مُخْتَلِفِ الْلُّغَاتِ إِلَّا لِغَةِ الْقُرْآنِ، وَمُفْتَخِرًا بِمُخْتَلِفِ الْحَضَارَاتِ إِلَّا حَضَارَةَ أَمَّتَهُ وَتَارِيخِ الْأَجْدَادِ الْحَافِلِ بِالْأَمْجَادِ، إِلَى أَنْ يَفْقَدْ مَقْوِمَاتِ شَخْصِيَّتِهِ وَهُوَيْتِهِ، وَيَنْسِلُخُ عَنْ دِينِهِ وَأَصْوْلِهِ، وَيَنْفَصِلُ عَنْ مَنْبَتِهِ وَجَذْوَرِهِ، فَتَبَرُّدُ فِي صُلْبِهِ جَذْوَةُ الْحَيَاةِ الْكَرِيمَةِ، وَيَتَحَوَّلُ قَلْبَهُ إِلَى زِنْزَانَةِ مَظْلَمَةٍ، وَيَمُوتُ ضَمِيرُهُ الْإِنْسَانيُّ خَلْفَ قَضْبَانِ مَطَاعِمِهِ وَرَغْبَاتِهِ الْدِينِيَّةِ، وَيَصْبُرُ مَسْخَا بَشَرِّيًّا مُخْتَلِفاً عَنْ خِلْقَتِهِ وَفَطْرَتِهِ الْأُولَى، وَعَدَّا هُجِيْنَا صَاغِرًا لِأَسْاطِينِ الْمَادَّةِ، مَفْتُونًا بِسُلْطَانِ الْمَجْدِ وَالصَّبَّيْتِ وَالشُّهْرَةِ، وَمَنْقَادًا لِأَشْيَاخِ السُّؤَدَّدِ وَالْجَاهِ ..

أَمَّا سِبَاقُ الْأَشْوَاقِ الْمَعْلَقَةِ بِالْآخِرَةِ، يَصْلِيْمُ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ فِي مَحِبَّتِهِمْ وَتَعْلُقِهِمْ بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، السَّاعِينَ إِلَى اِمْتِلَاكِ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ الْأَبْدِيَّةِ، بِالْجَدِّ وَالسَّهْرِ عَلَى تَطْهِيرِ الْقَلْبِ الْمُثَمِّلِ بِمَلَذَاتِ الْحَيَاةِ، وَتَسْكِينِ الْأَطْمَاعِ الزَّائِدَةِ عَنْ حَدِّ الْاِحْتِيَاجِ، وَالْاعْتِدَالِ فِي الْإِسْرَافِ وَتَرْفِيْهِ الْإِقْبَالِ عَلَى الشَّهْوَاتِ، لِلْتَّفَرُّغِ لِأَعْمَالِ الزَّرَاعَةِ لِدارِ الْقَرَارِ، وَمَعْرِفَةِ اللَّهِ بِالْعَمَلِ وَالسَّعْيِ وَتَصْفِيَّةِ الْبَيَاتِ، وَالْتَّلَذُّذِ بِلَطَائِفِ الْقَرْبِ مِنْهُ وَالْأَنْسِ بِذَكْرِهِ، وَالشَّوْقِ إِلَى لِقَائِهِ، وَالْاسْتِعْدَادِ لِيَوْمِ الْعَرْضِ عَلَيْهِ ..

والقرآن الكريم زاخر بآيات كثيرة ترغّب في الزهد، وتندِّمُ المتعاقدين بمداعِيَّة الدُّنيا الْزَّائِل، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17)﴾، وقال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَكِيمًا (67)﴾، وقال تعالى في قصة قارون: ﴿فَتَلَكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)﴾، وقال تعالى: ﴿فُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلِمُونَ فَتَبَلَّغُ (77)﴾.

والأحاديث كثيرة في ذمِّ الدُّنيا ومحاربتها عند الله، ففي حديث سهل بن سعد، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعْوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً مَاءً)، وعن أبي موسى، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: (من أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، ومن أَحَبَّ آخِرَتِهِ، أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَأَتَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى).

فمن يسأل الله الدنيا إنما يسائل مُؤْنَة أوزارها، وعدم الاعتبار بقلة وفائها، وكثرة جفائها، وخشبة شركائها، ويتهيأ لطول الوقوف للحساب على ما فرط في الحقوق والواجبات، وكما قال بعضهم: (من سأله الدنيا، فإنما يسأل طول الوقوف للحساب)، وقال الحسن: (إن كان أحدهم ليعيش عمراه مجهوداً شديداً للجهاد، والمال الحلال إلى جنبه، يقال له: ألا تأتي هذا فتصيب منه؟ فيقول: لا والله لا أفعل، إلَّي أخاف أن أتِيه فأصيب منه، فيكون فساد قلبي وعملي).

وَبَعُثَ إِلَى عَمَرَ بْنِ الْمُنْكَرِ بِمَالِهِ، فَبَكَى وَاشْتَدَّ بِكَاؤُهُ، وَقَالَ: (خَشِبْتُ أَنْ تَغْلِبَ الدُّنْيَا عَلَى قَلْبِي، فَلَا يَكُونُ لِلآخرَةِ فِيهِ نَصِيبٌ، فَذَلِكَ الَّذِي أَبْكَانِي ثُمَّ أَمْرَ بِهِ فَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَى فَقَرَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ).

أما سباق الأسواق المعلقة بالدُّنيا الفانية فلا تثبت أن تنقطع وتزول، وتشدُّ المفتوحين والمعلقة قلوبهم بحبالها وحبائلها إلى الزُّهد فيها وخلع ثوب مفاتنها، ونبذ ما جُمع في أيدي الناس من حطامها ومداعتها، بعد أن تبتليهم بفجائعها ومصائبها، وتُجافيهم بعد صحبة وموءدة، وتنسى ما تقتضيه المحبة، وتقلب لهم ظهر المجن بلا رحمة ..

وهولاء منمن أدركهم السُّعادَة، وانكشف عن بصيرتهم الغطاء، فعرفوا الحقَّ قبل فوات الأوان، واجتهدوا في أعمال القلوب والجوارح، فأعرضوا عما يشغلهم عن ذكر الله، ووضعوا يقينهم وثقتهم في الله، فصاروا بما في يد الله أُوتَّقَ بما في أيديهم، وتمسّكوا بالرجاء الموصول فاستغنووا عن الرَّجاء المقطوع ..

وهولاء هم المنعمون في سَرَابِيلِ الزُّهُدِ، المطمئنُونَ إِلَى تدبِيرِ الله لِأَحْوَالِهِمْ وشُؤُونِهِمْ، قد ذاقوا حلاوةِ الْقُرْبِ مِنْهُ وَلَذَّةِ التَّعْلُقِ به، فانقطعوا عن التَّعْلُقِ بِسُواهِ، ورضوا بتدبِيرِهِ رجاءً وخوفاً وطمعاً، فأغناهم وكفاهم الأخذ بالأسباب المكرورة والمحرّمة، وسمّا بهم إلى مراتبِ الأطهارِ الْأَتْقِيَاءِ، فارتَفَعُوا عن الاشتغال بما يوقع في الضَّنكِ والضَّيقِ والإعسارِ.

كما قال أبو سليمان الداراني : (كلُّ ما شغلك عن الله من أهلٍ ومالٍ وولدٍ، فهو مشئوم، وقال: (ليس الزَّاهد من ألقى هموم الدنيا، واستراح منها، إنما الزَّاهد من زهد في الدنيا، وتعب فيها للآخرة) .

ولا يدرك مراتب ومنازل الزُّهد الحقيقى إلا من خلا قلبه من الشَّهوات، وأشغل الذهن والتفكير بالعمل للآخرة، واستجتمع القلب الفقير الزَّاهد في الدنيا، الرَّاغب في الآخرة، المسخِّر لجوارحه في السعي والعمل، والمستكفي باليقين غنى، والدَّائب في العبادة شغلاً، وال بصير بيته ودنياه، وما يتلقاه من بصائر الملاحظ والمشاهد، والسياحة في الأرض وبطونها، وسهوها وأجوافها، والتَّفكير فيما خلق الله في أعماق المحيطات والبحار، وجري العيون والأنهار، وسفر أغوار الكون والكائنات، فأعرض عن الرَّكض وراء امتلاك الحظوظ الزَّائلة وأوثق الرباط بالحظوظ الخالدة، وحثَّ النفس على التَّزود بالطاعات، ومفارقة الحرام وذنوب الخلوات، مستنcka عن كل عمل مشين، وعن الاتساخ بأدران الذنوب والآثام، وإصابة العورات، والخوض فيما يخوض فيه الخائضون من أهل الضعف والهوان ..

ولا يتحقق الزُّهد الحقيقى إلا بالاقتداء، واتباع السنن وما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده في القول والعمل، فلم يتَّخذ له منهاجاً ولا شريعة ضالة مضلة، ولا رهبانية تحريم ما أحلَّ الله من الملذات والطيبات، ولم يتظاهر بمظاهر الفقر والعوز، والتَّكاسل والتَّواكل والانزواء ..

ولا يتحقق الزُّهد الحقيقى إلا بالتوسط والاعتدال، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۝ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۝ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۝ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (77).

وقد تكلَّم السَّلَفُ ومن بعدهم في تفسير الزُّهد في الدنيا، وتَنوَّعَت عباراتهم عنه، وورد في ذاك أحاديث منها ما روى عن أبي ذَرٍ، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: (الزَّهادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَ بِتَحرِيمِ الْحَلَالِ، وَلَا إِضَاعَةِ الْمَالِ، وَلَكِنَّ الزَّهادَةَ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَا تَكُونَ يَمِينَكَ أَوْتَقْ مِمَّا فِي يَدِ اللَّهِ، وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ الْمُصِيبَةِ إِذَا أَنْتَ أُصِيبْتَ بِهَا أَرْغَبْ فِيهَا لَوْ أَنَّهَا بَقِيتِ لَكَ).

وقيل للزُّهْرِيِّ: (ما الزُّهدُ فِي الدُّنْيَا؟) قال: من لم يَغْلِبْ الْحَرَامَ صَبَرَهُ، وروي عن أَحْمَدَ بْنَ أَبِي الْحَوَارِيِّ، قال: قلت لسفيان بن عيينة: (من الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا؟) قال: من إِذَا أَنْعَمْ عَلَيْهِ شُكْرًا، وَإِذَا أَبْتَلَى صَبَرَهُ، قلت: يا أبا مُحَمَّدَ قد أَنْعَمْ عَلَيْهِ فَشَكَرَ، وَأَبْتَلَى فَصَبَرَ، وَحَسِبَ النِّعْمَةَ، كَيْفَ يَكُونُ زَاهِدًا؟ فَضَرَبَنِي بِيَدِهِ، وَقَالَ: اسْكُتْ مِنْ لَمْ تَمْنَعْ النِّعْمَةِ مِنْ الشُّكْرِ، وَلَا الْبَلْوَى مِنَ الصَّبَرِ، فَذَلِكَ الزَّاهِدُ)

ولا يتحقق الزُّهدُ الحقيقى إلا بالاستعداد الدائم للحظات الموت المفاجئة، فإنَّ لمعة الشعور بالتعلق بأهدا布 الحياة الفانية،

تنطفئ في حدة تودع الشروق، وتصهرها حرارة الموت وسكراته، وإن الحقيقة التي تجلّى أمام الأحياء تختلف عن تلك التي يتجرّع غُصصها الموذعون، والرّاحلون عن ضفاف الحياة وشطآنها بلا رسائل ولا كلمات ..

ويروى عن مُحَمَّدٌ بْنُ عُقْبَةَ؛ قَالَ: (أَرْسَلَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ إِلَيْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنْ يَكْتُبَ فِي دَارِهِ شَيْئًا ، فَلَمَّا دَخَلَ الدَّارَ؛ قَالَ: يَا غُلَامُ! اكْتُبْ: تَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ، وَتَجْمِعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ، وَتَأْمَلُونَ مَا لَا تَبْلُغُونَ، وَاللَّهُ! لَا أَزِيدُكَ .).

المصادر:

ال المسلم